شـــلر

دراســـة تحليلية

« للكاتب الانجليزى الكبير توماس كارليل »

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

لا شك أن دارسى الأدب الألمانى أو الأدب بصورة عامة سيقابلون بكل ترحيب الكشف عن العلاقات الخصوصية بين أديبين عظيمين فى هذا الحقل بذّ أقرانها فى عصرها وكانت لها اليد الطولى فى إعلاء شأن الأدب ، لأن كل ما كتبه جوته أو شلر فى أى موضوع كان له أهميته الخاصة . والذى سنقدمه فى هذا الشأن هو الرسائل الخصوصية [1] التى تبودلت بين الأديبين العظيمين . هذه الرسائل التى لها علاقة وثقى بهذه الفترة الهامة من التاريخ الروحى ليس للفرقاء المعنيين بالأمر وحسب بل وبلادهما كذلك . هذه البلاد التى كانت تعج بالبحوث الصغيرة منها والكبيرة، وعلى الرغم من أن الذين عالجوا هذه البحوث كانوا أناساً أحط موهبة وأقل قدراً من الأديبين الكبيرين، إلا أن هذه المعالجات كانت ذات أهمية غير يسيرة . (لأنها كشفت النقاب عن الحوادث التى اعتورت البلاد فى تلك الفترة) [2]

لقد سمعنا وعرفنا كثيراً عن هذين الأديبين الفذين ، وعن صداقتهما وتعاونهما فى أعمال نبيلة عديدة ، وكانت ثمرة ذلك لكل إنسان . ونستطيع فى معرض بحثنا هذا — على الظروف الخافية التكوينية لكل منا ونتتبع أثر النتيجة (التالية) ونشرح علاقتها بجذورها الأصلية ، وكيف كانا يعيشان ويعملان سوية فى هذا المحيط التافه من العالم وكيف كان يكتب (فاوست) و (وليم تيل) على الورق المنهرى كما تكتب روايات منيرفا أو أغنيات رجل ينتسب إلى خاصة الناس ! إن المختصين فى الأدبيات لهم ولعهم المعروف فى البحث والتنقيب والتمحيص .. ولكن دعنا نبتعد قليلا عن الاختصاص أو أى موضوع شكلى آخر.. فليس لهذه الأشياء أى تأثير فى حب الاستطلاع الذى يجعلنا كلا شاملا فى صعيد واحد كبشر . والدليل على أن عطفنا فيما بيننا غير محدود هو هذا البحر الهائل من توافه الشائعات التى تجعلنا نشعر بالرابطة الإنسانية التى تربط بعضنا ببعض بقوة . . (وما هذه الشائعات إلا ترجمة غير كاملة) . ولا ريب أن الجنس البشرى يستوعب ويلفظ يوميا هذه الشائعات بصورة استمرارية ، وإذا كان حب الاستطلاع مسيطرا علينا هذه السيطرة التامة فيما يخص الشائعات العادية ، فكم بالأحرى تكون لأحاديث جوته وشلر أهميتها الكبرى التى تغرينا النزاهة نفسها على الإنصات إليها فيما لو كنا عائشين فى عصرهما ، ولكن من سوء الطالع أن تمر هذه الأحاديث لتوها فى الساعة التى شهدتها . ولنعد الآن إلى الرسائل والردود المتبادلة بينهما ، فإنها على ماهى عليه من حيوية وصراحة ومحبة ، لم تتركا غير الرموز والخلاصات المقتضبة.. فالحركة الدراماتيكية التى كانت تمثل على مسرح الحياة لا تخلف شيئا غير النتائج التاريخية الباهتة وهى كل مايتبقى لدينا.. ومن الحق القول أن كل رسالة خصوصية تبين نوعا ما شخصية الكاتب ، ولكن التصوير عاجز كل العجز عن تشخيص الطبيعة الروحية . فالهرم يمكن قياسه ورسمه من قبل مهندس بارع بحيث يصبح واضحا للعيان ، وكذلك يمكن رسم جبل (مونت بلانك) بألوانه وأشكاله وفى متاحفنا صور طبق الأصل لكل ذلك . أما تشخيص الرجال العظام وتصوير هذ الطراز من الرجال ، وهكذا.. فالصور التى فى حوزتنا تظهر من خلال سجف التاريخ باهتة ضعيفة غير واضحة المعالم ، وهى بعيدة كل البعد عن سحرها الذى امتازت به ، وقوتنا كلها عاجزة عن تجسيدهم كما هم رجالا أحياء ينبضون بالقوة والحيوية الناطقة . وكل الذى نتمكن أن نفعله الآن لا يتعدى تصوير أشخاص أشبه شئ بأشباح أوسيان [3] فى ظلال النعش، فمقراطنا ولو ثرنا — بعد كل هذا الذى قيل عنها — ليسا فى الحقيقة سوى شخصين غير مرئيين ، فليس حكيم أثينا ولا راهب

(١) هذا البحث دراسة تحليلية شاملة لحياة شلر ولم يتطرق المؤلف إلى ذكر المراسلات إلا عرضاً ، لأنه أفرد لها بحثا خاصا فى كتابه الجليل (مقالات متنوعة) فننوه بذلك مقدماً ، المترجم

(٢) من كلام المترجم

(٣) أديب كلاسيكى قديم

ايسليين شخصين بالمعنى المعروف وإنما هما لقب ليس إلا . ومع ذلك فهؤلاء الرجال ، وليس الألب أو (الكوليسيوم)[٤] هم من عجائب الدنيا وهؤلاء أنفسهم هم الذين نسعى جاهدين لطبع أفكارهم فى ذاكرتنا . إن الرجال العظام هم أعمدة النار التى تقود حجيج الإنسانية ، والتى تنتصب كبشائر سماوية وشواهد على ماحدث وأدلة ناطقة على ماسيحدث من شؤون تقرر مصير العالم بأجمعه ، وهم فى الوقت نفسه الإمكانيات المتجمدة الظاهرية للطبيعة الإنسانية المغلقة بالألغاز والأحاجى ، وهم بهذا الاعتبار يمثلون العظمة غير المنظورة وغير المدركة عقلا حتى من قبل أنفسهم كبشر . على الرغم من أنهم يحبونها أشد الحب ويحترمونها أكبر الاحترام ، ولكنهم يضطرون ، تحت الظروف القاهرة ، على أن يظلوا غير مدركين لهذه العظمة فى هذه الحياة . كم من الأسباب الوجيهة وكم من المغريات البريئة تجتذب حب استطلاعنا إلى مثل هؤلاء الأشخاص الأفذاذ . سنحاول التعرف عليهم ورؤيتهم عيانا كما نرى أنفسنا ، فكل ملاحظة وكل إشارة تخصهم تهمنا بالغ الأهمية . . . والنفوس العظيمة التى مضت لحال سبيلها لم يبق منها صور مجردة ، أما ميزاتها الخارجية ، لا . . بل وحتى الباطنية — فى بعض الأحوال — والتى كانت تتصف بها فقد ذهبت إلى العالم الثانى هى الأخرى ، ولم يبق إلا أن نعتمد على التاريخ فى تصوير بعض الذكريات البسيطة التى لها أقل علاقة بها ومع ذلك فهذا التاريخ — على مافيه من نواقص وعيوب — هو الكنانة التى احتفظت ببعض الذكريات والتى لولاها لأضحت فى خبر مكان . إن الرسائل المتبادلة بين شلر وجوته تمتاز بميزة ثمينة للغاية وهذه الميزة هى الحقيقة بالذات ، وهى تتجلى فى كل الظروف والأحوال ، سواء كان ذلك من جهة أصالة الحقيقة الواقعة أو الرأى الخاص بهذه الحقيقة ، أما الإخلاص فبين بكل وضوح فى مثل هذا الأسلوب ، واللطف الطبيعى لا يمكن أن يعرقل حق حرية الكلام أو الفكرة فى مثل هذه الأحوال ، ولم تكن النايات إلا غايات شريفة . وكان الإخلاص المتبادل بين الطرفين من الوضوح لدرجة أنه كان يتعذر على أى ستار مهما بلغ سمكه على إخفائه ، وعلى هذا فكلا الصورتين الذاتيتين تشبه الحقيقة الأصيلة وعائلها أحسن المماثلة . وقد يرغب بعض القراء أن يرى مزيجا مما يمكن أن ندعوه بالشؤون المنزلية مختلطاً بالآمال والمخاوف والمشاعر التى كانت تساور الشاعرين العظيمين ، لما للأول من علاقة متينة بالحياة الإنسانية الاعتيادية ، ولكن بالرغم من بحثنا المرهق الطويل لم نعثر على شىء من ذلك ، مع علمنا الأكيد أن هذا النقص نادراً مايحدث فى المراسلات الحديثة ، وعلى هذا فإنه لم يتبق لدينا فى هذا الحضم الواسع فى الخير والشر والحالة المعاشية والعاطفية كالفقر والغنى والفرح والحزن ، قلنا لم يتبق لدينا إلا النزر اليسير وإلا ماشح وقل ، ولعل رغبة القراء الذين يعيشون فى بلاد هذين الشاعرين فى ذلك أقل لأنهم على اتصال بالحياة اليومية التى واكبت حياة الشاعرين ، مع اختلاف فى الزمن وبعض العادات التى تغيرت تبعاً للتطور بخلاف الأجانب الذين يرغبون رغبة ملحة فى استطلاع شؤون البلد الذى ترعرع فيه الكاتب والشاعر والأديب ، وهذا جلى وواضح ، وعلى أى حال يجب ألا ننسى أن شلر وجوته أديبان ، وأن حياتها الاجتماعية ماهى إلا هيكل الوجود الفانى ، وليس لهذا الهيكل علاقة بالوجود الروحى إلا كما تكون علاقة الخضوع والتبعية ، وهذا بحد ذاته لا يحتاج إلى ذكر مستفيض . زد على ذلك أن الناس المثقفين — نظراً لمزاجهم الطبيعى — ينفرون من الخضوع للعواطف الهائجة ، ولا يظهرون مايعتلج فى نفوسهم حتى إلى أقرب المقربين اليهم . وهذا مايخفف من حرارة المراسلات ولكنه فى الوقت نفسه يزيد من سعادتهم الخاصة ، لأن من يحمل قلبه فى ردنه لا يأمن عليه من نقر الغربان كما يقول المثل السائر ، وعلى الرغم من أننا لانبخس اعترافات روسو حقها فى الإفصاح عن مكنونات قلب الكاتب ؛ إلا أننا لانجد شيئا من هذه الاعترافات الجريئة فى هذه المراسلات موضوع البحث

وفى الوقت ذاته هناك بعض الآثار ذات الطابع المنزلى منتشرة هنا وهناك نتقبلها ونحن مسرورين ولانؤاخذها بشىء غير ندرتها ، ولكن هذه المراسلات تحتفظ بصورة ذات أهمية قصوى ، إذا اعتبرناها حق اعتبارها ، وهى التى تشغل بالنا أكثر من تلك القسمات المنزلية . فهى تظهر لنا عقليتين مبدعتين شاعريتين ، تنميان ثقافتهما بصورة منظورة ، وتتقدمان من درجة إلى أخرى

(٤) بناء شامخ فى أثينا

فى القوة والجلاء والاستعلاء ، وهما لا يسيران فى طريق واحدة بل فى اتجاه واحد . ومن هذا التقدم يمكن لكل شخص — مهما بلغت درجة ثقافته — أن يستفيد فائدة نفسية كبرى من هذه الدروس الغنية بمحتواها الأدبى . والقيمة الكامنة فى هذه الدروس تزداد كلما تقدمت المراسلات ، مع اختلاف فى التطور ، وتظهر على الخصوص على سماء شلر ، الذى يختلف عن صاحبه بصغر سنه وتأثره به ، وهذه السنوات الإحدى عشرة تعتبر أهم فترة من حياة شلر الروحية . وفى الحقيقة إن هذه الفترة يمكن اعتبارها التأريخ التقدمى منذ عثوره على الطريق المستقيم الذى نهجه فى مستقبل أيامه

ولا يعنينا الآن التطرق إلى صفات هذه الوسائل ولا إلى محاسنها سواء كان منها العرضية أو الجوهرية ، على ماهى عليه من قيمة كبيرة . أما العلاقة المتقابلة الشريفة الصريحة التى تظهر بين المراسلين وأسلوبهما وأهمية كل ذلك وما يتصف به هذا العمل من وجهة النظر الفلسفية والبيوغرافية ، فنأمل أن نوفيها حقها جميعاً فى مناسبة مقبلة . ومع ذلك فبعض التأملات المجردة والاستنتاجات الأخرى ستبرز من تلقاء نفسها ، وستظهر فى بحثنا هذا ، على الرغم من أن القراء الإنجليز لا يهتمون بالرسائل قدر اهتمامهم بشخصية الكاتبين الشاعرين . فالرأى العام له بعض الإلمام بجوته ، ولكن رغبته فى التعرف على شلر أكبر ؛ لأن معرفته به قليلة جدا ، وعلى هذا فإن رغبتنا الآنية تتلخص فى تقريب شلر إلى نفوس القراء . كان يجب أن نذكر شيئا عن شلر فى مجلتنا ، ليس لأهميته فى الآداب الألمانية وحسب ؛ بل فى الآداب الأوربية كذلك ، وهذه خطيئة نأمل أن نكفر عنها الآن وفى بحثنا هذا . أثبت الرجل عبقريته الشعرية والفلسفية بسلوكه وبسلسلة كتاباته التى أبانت ذلك للجميع ، يتجلى ذلك فى إعجاب أمته به فى أثناء حياته وشهرته التى طبقت الخافقين خلال الخمسة والعشرين سنة التى أعقبت وفاته ، هذه الشهرة التى استمرت فى النمو والتوسع وتثبيت نفسها ، وهذا مالم ينله إلا ذو حظ عظيم . وليس بخاف أن عدم ذكرنا له ليس مرده إلى عدم إعجابنا به ، بل لأن هناك كثيراً من الآداب الأجنبية تحتاج إلى الشرح والتفسير بخلاف شلر الذى يفسر نفسه بنفسه . تمتاز عظمة شلر ببساطتها ، وأسلوبه فى عرض هذه العظمة مفهوم من قبل كل شخص . ومن بين الكتاب الألمان الذين يمكن اعتبارهم من درجته ، باستثناء كلوبستوك ، يعتبر شلر أبعد ما يكون عن الوطنية بمعناها الضيق ، اللهم إلا إذا اعتبرنا كلمة ألمانى بما تعنيه من صدق وإخلاص ونبل وشهامة . أما أسلوبه فى التفكير والنقاش فهو أوربى مافى ذلك ريب . وعليه فليس غريباً أن نلاحظ أن أى كاتب ألمانى آخر لم يقابل بمثل هذا القبول الحسن لدى الأجانب ، ولم يحظ بمثل ما حظى به بصورة دائمة . فجعله الفرنسيون قبلة أنظارهم ومطمح مقاصدهم ، يتبين ذلك من ترجمتهم لمؤلفاته وشرحهم لها وتمثيلهم لرواياته على المسرح ، واحترام أكثر النقاد له احتراما بالغاً . وهكذا أصبح شلر لدى الرومانيين (٥) الأستاذ الأكبر والمثل الأعلى والسفير الوسيط بين المدرستين القديمة والحديثة ، وغدت مؤلفاته جسراً ذهبيا يصل حدائق فرسايل بأرض العجائب (٦) . وكذلك الحال معنا ، نحن الذين لانعير أهمية للرومانسية ولا للكلاسيكية ، وخصوصاً بعد أن ذهبت ريح المشادة التى أثارها (باولز) بخصوص الشاعر بوب ، على أن ذلك لا يعنينا مطلقاً من أن نشعر بالاحترام العميق له ؛ واحترامنا هذا لا يقتصر علينا وحدنا ؛ بل يتعداانا إلى كل شخص له أقل ميل شعرى . فقراء الألمانية ، وهؤلاء يزدادون باطراد مستمر يعتبرون شلر بأكورة الدراسات ، وحتى ثقلاء الفهم منهم مجبرون على الاستمتاع بجمال كتاباته . أما الأشخاص الذين لا يعرفون الألمانية فعندنا لهم تراجم كثيرة ومتعددة ، ولو أن هذه التراجم تفقد كثيراً من رونق الأصل ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يكون سدا حائلا بينهم وبين التمتع بأشعة نور الشمس الأصيلة . وهذه التراجم ستوقظ الحب فى القلوب الحساسة والنفوس المرهفة مما سيدفعها حتما إلى الإدراك المباشر ...

وأهم جزء من واجبنا الآن هو الدفاع عن شلر وتوكيد قيمته ووضعه فى المكانة اللائقة به . إن التعريف بكتاباته مستمر بسرعة وبالطريقة الصائبة التى يمكن إحرازها بالدراسة القريبة للقلب وبالمحبة التى تعمر قلوب الذين أوتوا الفهم النزيه وروح التطلع التى لاتنى

(٥) هم أتباع المدرسة الإبداعية المعروفة (٦) بين القديم والحديث ، وعالم العجائب مكان خيالى لاوجود له الا فى مخيلة الشعراء والأدباء.

تبحث وتفكر وتعمل على الحصول على أعلى درجات الكمال . أضف إلى ذلك أن مؤلفات شلر لا تحتاج إلى أقل الشروح ، فهي تشرح نفسها بنفسها كما ذكرنا سابقاً . فقيمة مثل هذا النوع من العظمة وشاعرية من هذا الطراز تظهران سافرتين مكشوفتين، فكتاباته لا يمكن أن يصل إلى مستواها أحد لما تمتاز به من صراحة قل أمثالها وعزت على منال الكثيرين

وما من شك أن واجب النقد يقتضينا أن نوفي حق مثل هذا الشاعر الذي فسر مدلهمات المجهول . وكل شاعر يجد نفسه مولوداً في محيط تافه ، وعليه أن يجادل ويناضل للتخلص من قيود صغار العالم الواقعي إلى حرية العالم المثالي اللامحدود.. وتأريخ مثل هذا النضال يعتبر في الوقت ذاته تأريخ حياته نفسها ، ومن هذا يمكننا أن نستمد عبراً ذات أهمية كبرى . ولم يجز سعيه الشاق هذا — على سموه — أي جزاء اللهم إلا إذا اعتبرنا الجزاء ذاتيا . ولكن قانون وجوده بحد ذاته ، اضطره إلى قبول مثل هذا العمل الشاق والاستمرار في أدائه وتحمل أعبائه ، وإلا كان البديل لذلك التعاسة بعينها ، وقد تخلق التعاسة نفسها مواهب وكفايات ، وكثيراً ما كان الأمر كذلك في معظم الأشخاص الذين ابتلوا بهذه التعاسة ...

أما اضطراب شبابه فهو (اضطراب العبقرية) التي كانت تظهر أحياناً وكأنها سجية جامحة .. وكأنها تكهن بالرسالة الخفية القوية التي أرادته لها السماء ، لكي يطهر نفسه من أدران الحياة ويستعد لما أريد له من واجب مقدس وأمر عظيم ، هذا الأمر الذي يندر من ينفذه أو حتى يلتفت إليه ، أما ما يخص المتحذلقين ومن لف لفهم فأمر عبث لاطائل تحته .. وأما أصوات ضجيجهم وعجيجهم فتذهب مع الساعة التي يقضون فيها . وطبيعي ألا يعنى الكمال الروحي لعامة الناس شيئاً إلا كما تعنى الهمسة العابرة الغارقة في ضجيج العالم

والحال كذلك حتى مع (بايرون) و (برنز) اللذين أوتيا أذناً حساسة لالتقاط الرسالة السماوية (هؤلاء الذين ينطقهم الوحي السماوي) فيصعب عليهم التخلص من الارتباط بالجسد والدم ، وبدلا من العيش والكتابة عن القوم الذين يحيون بين ظهرانيهم يكتبون عن الخلود الذي يبقى على الزمن والذي يظل ملازماً لهم ، وبدلا من أن يعيشوا مرضيا عنهم (يعيشون في الكل في الخير وفي الحق[٢]) ولا شك أن هذه النفسية وهذا التأرجح بين الفكرتين والتوسط الفاشل المؤلم بين الحق والباطل هو الخطيئة المقلقة والشقاء الرئيس للانسانية في كل أدوار حياتها . وتعمدت النصفية هذه في هذا الوقت تعميداً جديداً واتخذت اسماً غير اسمها وهو الاعتدال وأصبحت هذه فضيلة وطريقاً وسطاً . إن حالة كثير من المنصفين الذين وهبوا طبيعة شريفة وفاضلة لتدعو إلى الأسف المؤلم

والآن دعنا نفتش عن سفينتنا ذات الحمولة الغنية بين هذه السفن التي تحطمت في خضم الحياة ، ونسأل ربابنتها عن أحوال سفرتهم . وما من شك أن شلر يمثل في نظرنا هذه السفينة الناجية ، وإنا نتساءل : كيف تمكن هذا الرجل من النجاة ؟ ومن أية جهة حاول اختراق سر الطبيعة الروحية ؟ ومن أية منطقة تمكن من التحليق في سماء الشعر ؟ وتحت أي الظروف الخارجية وبأي القابليات الداخلية ؟ وبأي الوسائل وأية نتيجة ؟ بديهي أنه ليس في مكنتنا ولا مكنة الظروف المحيطة بالقراء في هذا الخصوص الإجابة الشاملة القطعية على مثل هذه الأسئلة . ومع ذلك فيجب أن نشرع بالبداية الناقصة حتى نتمكن من الحصول على النتيجة الكاملة . ونظرة شاملة على مسلوك هذا الإنسان كما كان يظهر وكما كان يحيا ، سواء كان ذلك في مجال العمل أو في الشعر ، كافية لقبوله لدى من يعرف الشيء القليل عن شلر ، وذلك يعتبر فتحاً في طريق المعرفة الحقة ، أما الذين هم على اتصال به فينفعهم ذلك كشاهد على أحقية مافكروا ويفكرون به . لدينا بيانات عديدة منتشرة هنا وهناك للتعرف على حياة شلر الشخصية ، وهذا ما يجعلنا نغضي عن ذكر قصة حياته التي تعتبر معروفة الآن . والذين لا يزال حب الاستطلاع متمكناً منهم يمكنهم أن يشبعوا مثل هذه الرغبة بالاطلاع على كتاب (حياة شلر) المطبوع بالإنجليزية أو (حياة شلر) في مقدمة الطبعة الفرنسية لرواياته الدراماتيكية أو في مقدمة الطبعة الإنجليزية لمؤلفه (حرب الثلاثين سنة) . وفي دراستنا هذه نرجو أن نوفق في شرح الناحيتين العملية والتأملية من حياته ، أما الوقائع التي تداخلت في تاريخه العرضي فستظهر في معرض هذه الدراسة

(٢) كلام الشاعر العظيم جوته

للكلام بقية

يوسف عبد المسيح ثروت